

بين العقاد والرافعي

للاستاذ سيد قطب

- ٦ -

جاء في حديث الأستاذ سعيد المريان عما بين العقاد والرافعي :
« أصدر العقاد ديوان « وحى الأربعين » في سنة ١٩٣٣ ،
والسياسة المصرية يومئذ تسير في طريق مموج ، وحكومة صدقي
باشا تمكن لنفسها بالحديد والنار ، و « الوفد » ومن ورائه الأمة
كأها يجاهد حكم الفرد ويكافح للخلاص ، والعقاد يومئذ هو
كاتب الوفد الأول ، يكتب المقالة السياسية فترن رنيناً ، ويلقها
آلاف القراء بلهفة وشوق ، في كل مدينة وكل قرية ، فلا يجب
أن يكون العقاد بذلك عند عامة القراء ، هو أبلغ من كتب وأشهر
من نظم ، حتى ليؤول أمره من بعد إلى أن ينحله الدكتور طه
حسين بك الوفدي المتحمس ، لقب « أمير الشعراء » تعلقاً للشعب
وزولاً على هواه »

ثم قال كلاماً آخر يمت إلى هذا الكلام ، ويضرب على نعمته
ويرجع انتصار العقاد على الرافعي في المركة عند غالبية القراء إلى
هذه العوامل السياسية . وكان هذا وأمثاله من الأسباب الأولى
التي حفزتني للكتابة في الموضوع التي أكتب فيه ، لأنها ندت
عن التاريخ إلى الحكم والتعليق والترجيح

يخطئ الذين يعتقدون أن العقاد يستمد قوته من ظروف
طارئة أو قوى خارجية عن ذاته ، كالسياسة ، والحزبية ،
والصحافة ... الخ

والبراهين على ذلك شتى

فلقد قيل إن العقاد كان قوياً بأن كان « كاتب الوفد الأول »
ولكن العقاد خرج على الوفد ، لالخارجين في إبان قوته وسعوطه ،
وبعد تجربة في الخروج عليه ذهب بها إلى عالم النسيان ثمانية من
أعضائه يتابعهم ثلاثون من الهيئة الوفدية .
وقد لقي من الكيد ، ووسائل التضال ، الظاهرة والخفية ،

البريئة والشائنة ، ما لوجه إلى هيئة كاملة لضمضمها . فإذا
كانت عاقبة هذا الخروج ؟

لقد بقي العقاد هو « الكاتب الجبار » ، وتضمض خصومه
ووراءهم قوة العدد ، وقوة الحكم ، وقوة المال ، وقوة الماضي
الوطني ، وكل قوة مأمولة في الوجود !

ثم قيل : إن العقاد يستمد قوته من الصحافة ؛ ولكنه طوى
قلبه عامين كاملين وكان ذلك بعض ما دبره له خصومه الأقوياء .
فإذا كانت العاقبة ؟

لقد بقي العقاد مع ذلك جهير الصوت ، مسموع الرأي ،
وأخرج للناس في هذه الفترة ثلاثة مؤلفات : أحدها « سمع
زغلول » وهو يكفي وحده لخلود كاتب عظيم ، وبقي خصومه
يحبسون حسابه ، ويتوتون قلته ، وبقي كل فرد في القراء يرتقب
عودته إلى الميدان ... وقد عاد !

ثم لماذا يكون العقاد قوياً بالسياسة وحدها ، وخصومه
— ومنهم الرافعي — كانوا يلجأون إلى الدين ، وهو أقوى أثراً
من السياسة ، وأتباعه أكثر من أتباعها ، فلم تكن لهم
الغلبة وسلاحهم أقوى وأبرز ؟

الحق ، أن كل هذه تميلات وأوهام ، وخطأ في تقدير أسباب
الغلبة ، ووسائل البروز ، وإغفال للقوى الدائنية الكامنة التي
هي مدار كل نصر وظهور في عالم الوجود

ألف حزب سياسي ، وألف صحافة ، وألف مناسبة طارئة ،
لم تكن كفيلاً بإبراز العقاد ، لو لم يكن العقاد نفسه قوة من قوة
الطبيعة ، وطاقة من طاقة الحياة ؛ ولو لم تكن في أطواء نفسه
ومواهبه ، بذور العظمة ، وخيرة التفوق ، ودوافع النهوض

— إنما انتصر العقاد لأنه يكتب في السياسة بالهام من الوطنية ،
ثم يجنح بالوطنية إلى النزعة الانسانية ، وينفق في هذا كله من
ذخيرة روحية لا تنفد

والحقيقة أن العقاد — مع هذا — مغبون أشد المغبون ، في
مدى شهرته ، وفي نوع شهرته . مغبون لأنه في بيئة بينه وبينها
عشرات الأميال من الفوارق والخطوات ، وقل فيها من يتابعه
في سموقه ، أو يرسم خطاه على بعد المسافة . ومغبون لأنه ليس

نفسى انتفعت في فهم المقاد واستيعابه إلى حد ما . وسأزداد له
فهماً كلما اتسع مدى ثقافتى ، وتفتحت جوانب نفسى ، وقويت
نوازع الحياة فيها

فالذين يحسبون الأدب مادة لينة أو أسلوب ، ويمتمدون
على نفوس ضيقة وأذهان محدودة ، وثقافة من لون واحد ،
لا يصح لهم أن يطمعوا في دراسة المقاد ، ولا يجوز منهم أن
ينقدوا المقاد ، لأن أدواتهم لا تزال ناقصة ، أو معدومة فيها
يتصدون له . بينما الرافى أستاذهم لغة وأسلوب متى فهما لم يبن
شيء وراءها غير مفهوم ؛ فهو سهل جداً لا يكاف مجهوداً
ولا عناء .

واللغة والأسلوب وحدهما لم يكونا كفيين لدراسة أى شاعر
عربى عظيم ، في وقت لم تكن الثقافة الإنسانية قد بلغت مبلغها
الآن ، والذين يراعون اللغة والأدب المحض وحدهما لا يستطيعون
دراسة المتنبي ولا الممرى ، بل لا يستطيعون دراسة ابن الرومى
وأبى نواس ، لأن جداول من الفلسفة ومن الفلك والطب
والتنجيم وسواها ، قد صبت في ثقافتهم ؛ فكان لابد من قسط
يعادلها عند نقادهم مع الاستعداد النفسى الأسيل إذا شاءوا النقد
على حقيقته

وأقرب مثل على فساد النقد الذى يتصدى له اللغويون
والأسلوبيون ، ما أورده الأستاذ محمود محمد شاكر عن قزح
وقوسه ، وناقشته فيه في العدد الماضى . فهو يأخذ على المقاد
نقده لبيت شوقى :

قصرأ أرى أم فلكا وشجراً أم قزحا
وذلك لأن المقاد قد قال بمد هذا :

ألقى لمن بقوسه قزح وأدبر وانصرف
فلبس من أسلابه شقى المطارف والطرف

وفساد هذا المأخذ أن الأستاذ لا يفرق بين صورة لنوية
وصورة ذهنية خيالية . فلفظة « قزح » في بيت شوقى ، لا تزيد
على أنها « لفظة » لنوية ليس وراءها صورة ذهنية متخيلة مقصودة .
فالرجح فيها إلى القاموس ، والقول قول القاموس ؛ أما هي عند
المقاد ، فتعنى « حالة » خاصة مطلوبة ، فيها قزح ملك الألوان ،
ممسكا قوسه ، وهؤلاء الحسان يتنازعته عليها ، فيثلبته ، فيسلم

معمولاً بخير ما فيه ، لأن خير إنتاجه يتطلب قراء من نوع مفقود
أو شبه مفقود

ولو فهم ذلك بعض من نفسوا عليه وحقدوا ، لأراحوا بهم
بعض الشيء ، أو لملهم كانوا يزيدون عداً وحقداً ...

ويخطئ الذين يحاولون أن يدرسوا المقاد — ولا أقول
ينقدونه — وكل محصولهم من الثقافة ، كتب لنوية درسوها ،
وكتب أدبية فهموها من آداب اللغة العربية . فليس المقاد أديب
لغة وأديب أسلوب ، حتى تكنى اللغة ويكنى الأدب الخالص في
فهمه ، ولكن نتاج المقاد مجتمع ثقافات ودراسات قديمة وحديثة ،
عربية وغير عربية ، مصهورة في بوتقة طبيعة ممتازة ، ونفس
رحبة ، وذهن مشرق ، ومواهب تنتفع بالثقافة ، وتعلم على حدود
الثقافات !

ولقد رقيت إلى محاولة استيعاب المقاد — وأفلحت إلى
مدى — على درج من دراسات شخصية جمة ، ليست دراسة
الأدب العربى ولا اللغة العربية إلا أولى خطواتها . دراسات
تشمل كل ما نقل إلى اللغة العربية — على وجه التقريب — من
الآداب الأفرنجية : قصة ورواية وشعرأ ؛ ومن الباحث النفسية
الحديثة : نظريات العقل الباطن والتحليل النفسى والسلوكية .. الخ
ومن الباحث الاجتماعية والمذاهب القديمة والحديثة ومن مباحث
علم الأحياء — بقدر ما استطعت — وما نشر عن دارون ونظريته
ومن مباحث الضوء في الطبيعة ، والتجارب الكهربية . وما
استطعت أن أفهمه عن اينشتين والنسبية ، وعن بناء الكون
وتحليل الذرة ، وعلاقته بالاشعاع ... الخ

ولا أفصل أو أتوسع في هذا ، فحسبى أن أقول : إننى انتفعت
بكل معرب أو مؤلف ، عن النظريات العلمية والفلسفية الحديثة
في شتى أنواع الثقافة ، مدفوعاً في ذلك بميل طبيعى ، كان يسيرنى
— دون إرادة — حينما أتناول صحيفة كالمقطف مثلاً أن أبدأ
بقراءة البحوث النفسية ، ومباحث علم الحياة ، وما قد تتضمنه
عن علم وظائف الأعضاء ، وعن تحطيم الذرة ... وما أشبه ذلك
قبل أن أتناول ما بها من بحث أدبى أو قصيدة !

وبكل هذه الثقافات بمد الثقافة الأدبية ، وبمد استعداد

والدعابة القوية ، والنزول الشفاف ، تلتقي كلهما في قطعة قصيرة ،
يطلب بها قبلة !

وإليك مثالا آخر في « عابر سبيل » تحت عنوان « ابنا
النور - الزهر يخاطب الجوهر »

يا جوهر الحسن لا نضمني لديك بالموضع المهان
فالزهر والجوهر المصني صنوان في النور توأمان
أشمة النور في يدينا وديمة أو وديمتان
لكننا بيننا اختلفنا يا جوهر الحسن في الصيان
تصونها أنت من يعيد بالسيف والرمح والستان
ولم تزل في يدي كزأ يسان بالمطف والحنان
ومعدن النور في حي وفيك معنى الحياة فان
فيا زماناً بلا حياة إلى حياة بلا زمان
كل له من أبيه حظ ونحن بالحظ راضيان

فن أين يدرك قاري ما في مثل هذه القطعة من جمال ، قبل أن
يعرف المادة الخاصة لفهمها من دراسة « الضوء » وتوزيعه وأثره
في الأحياء وغير الأحياء ، ونصيب الزهرة منه ونصيب اللؤلؤة ،
ثم يضيف إلى هذا عاطفته هو ، وإحساسه بمظاهر الحياة وعطفه
على الزهرة الحية التي تحفظ كثر النور بالمطف والحنان ... الخ

وقد اخترت هاتين القطعتين ، تتطلبان دراسة علمية للنفس
أو للضوء ، ووراءهما كثير مما يتطلب دراسات أخرى أعمق
وأوسع وأرقى في مدارج المعرفة الانسانية ، فيحتمل أن أنبئه
إلى أن هذه الدراسات ليست هي كل ما في نتاج العقاد ، ولا هي
خير ما فيه ، فان وراءها ذخيرة نفسية وطاقه روحية ، وإشراقاً
ذهنياً ، وهذه المواهب هي التي تحيل تلك الثقافات فناً سائفاً ،
ولكنه فن صعب المرتقى ؛ تبدأ درجانه بالثقافة وتنتهي بفسحة
النفس ، ورحابة الحس ، وتوفر الشعور . وليس كل من درس تلك
النظريات بقادر على فهم العقاد ما لم يكن ذا نفس وقلب وحياة !
وموعدي مع القراء كلمات أخرى ، لعلني بها أوضح الفروق
الأساسية بين المدرستين ، فينكشف سبب الخلاف الأصيل بينهما ،
ومقدار أسالة كل منهما ، وحقه في الحياة والاحترام .

سبير قطب

(حنران)

بالقلبة ، وياق قوسه وسلاحه وينصرف فلبسن منها شتى المطارف
والطرف . فالمرجع هنا للذهن والدوق لا للقاموس
وقد غاب الرافعي ما عناه شاكر ، وما تمنيه المدرسة الراقمية
كلها في تفسير العقاد ، لأن عدتها للنقد من استمداد طبيعي وثقافة
مكسوبة ، شيء قليل

ولا حيلة في فهم كثير من أدب العقاد بغير الاستعداد
الطبيعي ، مع لون من ألوان الثقافة الإنسانية الحديثة . والأمثال
على ذلك قد توضح ما سبق من إجمال . فها هي ذى قطعة من
« وحى الأربين » بعنوان : « سعادة في قفم »

هنا قفم ساج في الدم أسائلُ عنه ولم أعلم
جهلتُ حباياه حتى أتى عريف الطلامم بالمعجم
ففيه كما قيل مسجونة سعادة بعض بني آدم
تجن جنونا بنور الضحى وتذبل في حبسها المظلم
وقد زعموا أن إطلاقها رهين بهمة ذاك القم :
بسر على شفتي فأن يساح إلى شفتي مفرم
فهل أنت مطلقها منعا فديتك أم لست بالنعم ؟
وما أنا بالمشهي قبلة ولا بالحريص على مضم
ولكننا أما أبكي أمي لتلك الشهيدة في القمقم !

فهل فهم الراقميون شيئاً من هذه القطعة مع وضوح كل
لفظة فيها وكل عبارة ؟ وكيف يستطيع فهمها من لم يدرس
شيئاً عن نظرية فرويد في « العقل الباطن » ويكون مع هذا على
استعداد لأن يحس ، بأن النوازع والرغبات المكبوتة في النفس
والأشجان والبلابل والاضطرابات التي تمر بها في إبان ضرام الحب ،
تظل تمتلج في النفس ، وتقلقها وتمزها هزاً كمواد البركان المكتوم ،
حتى ينفس عنها ، ويتاح لها التعبير ، فإذا هي سعادة وهدوء وراحة
هذا ما يقوله العقاد في ثوب من الفن ، وجمال من التعبير !
عواطفه الثائرة ، وبلبله المضطربة ، هي نفسها سعادة حبيسة إذا
أتيح لها الكشف والتعبير ، وكيف يكون التعبير ؟ يكون قبلة على
« شقّي فأن » تبيح السر إلى شفتي مفرم ، وعندئذ تنطلق « تلك
الشهيدة في القمقم التي يبكي لها أمي .

فهنا النظرية العلمية ، والحقيقة المدركة ، والفن العالي ،